الفصْل الرَابع

هديه في الوفاء ﷺ

من نواحي الإعجاز في الوفاء المحمدي :

إنّ الـــذي يـــتأمل في وفائه صلوات الله وسلامه عليه ، يستطيع أن يستخرج ما شاءت له طاقته من أنواع الوفاء ودرجاته ومعانيه وما يرتبط بها ، فما من خصلة من خصال الوفاء إلا وقد بينها ﷺ ، و ما من خصلة من خصال الوفاء إلا وقـــد بلغـــت منتهاها عنده ﷺ ، ولو ضممت الوفاء بأنواعه إلى كمالاته الخلقـــية ، لظهر لك تكامل يخطف سناه الأبصار في مستوى أعلى لا يصدر إلا عن أوفى الخلق على الإطلاق .

ومن أنواع الوفاء : الوفاء للرحم ، ويدخل في ذلك صلة الرحم ، ووجوه صلة الـــرحم فـــي الإســـلام لا تدخل تحت حصر، وكلها ترمي إلى غرس الأخوة الصـــادقة والمحبة الصافية في المجتمع ، واقتلاع الحقد والكراهية والغل من الصدور .

فمن صلة الرحم : بذل المال ، والرعاية ، والزيارة ، والإكرام ، والبشاشة ، ودفع الضرر ، وإيصال ما يطيقه الإنسان من الخير إلى ذوي رحمه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كل ذلك بنية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى. ويدخـــل في باب الوفاء للوالدين النهي عن السباب ، عن ابن عمر رضي الله تعـــالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال ((إن أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قـــيل : يـــا رســـول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه)) رواه البخاري ،وفيه دليل على أن كل ما يكون محتملاً أن ينتج منه شر ، لا يفعل خيفة من وقوع الشر .

قـــال الحـــافظ عبدالله بن أبي جمرة المتوفى سنة ٦٩٩هـــ " وقد جعل الجهلة اليوم ممازحتهم فيما بينهم أن يلعن بعضهم أبا بعض أو يعدونه مباسطة وهو مـــن المهلكات " فتأمل في ابتعاد المسلمين عن العمل بتعاليم الإسلام منذ أمد بعيد فما بالك بهم اليوم ؟ .. ومن الوفاء للوالد أن يصل الابن أصحاب أبيه ، روى مســـلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال ((إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي الأب)) .

ولمـــا كان الوالد هو ممثل الأسرة في المجتمع فإن صلة أهل وده ينبني عليها تماســـك المجتمع وترابطه ، وتوثيق العلاقات بين جيل الآباء وجيل الأبناء ، وسكت الحديث عن أهل ود الأم لدخولهم فيما هو أعم ، وكيلا يؤخذ منه مودة غير المحرمات من النساء مما يؤدي إلى انتهاك الأعراض تحت ستار الصلة ؛ والإسلام وضح آداب الأسرة وبيّن حقوق الآباء ووضح حقوق الأبناء على الآباء، بحسن تربيتهم وتأديبهم وتنشئتهم على محبة الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فمن حق الولد على أبيه أن يفعل أبوه ما في وسعه ليعينه على معرفة طرق سعادته .

ومن صلة الرحم الوفاء بحقوق الزوجية ، وواجباتها وآدابها ، وقد بين الشرع كل صغيرة وكبيرة تتعلق بهذا الباب الذي ينبني عليه صلاح الأسرة والمجتمع ومـــن تتـــبع ســـيرته ﷺ في بيته عرف إعجازه ﷺ في سن الآداب الرفيعة للمعاملة الزوجية وبيان قواعدها . وكان ﷺ يذكر لأم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها ما قاسته معه في مكة، ويبرها بعد وفاتها. عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت (ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها ، ولكن كان يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضـــاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة : فيقول إنها كانت وكانت ، وكان لي منها[1] ولد) .

---

[1] رواه البغوي في مصابيح السنـــة .

وعـــن أنـــس رضي الله تعالى عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أُتِيَ بهدية قال : اذهـــبوا بهـــا إلـــى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة . إنها كانت تحب خديجـــة. واســـتأذنت علـــيه ﷺ امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان.

ومن الوفاء : الوفاء بحقوق الجار. وفي ذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه (مـــازال جـــبريل يوصـــيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) رواه البخاري ومسلم. وجاء في الحديث (لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان حتى يأمن جاره بوائقه) فلا تجتمع حقيقة الإيمان مع إيذاء الجار أبدا. وفصّلت الشريعة حقوق الجار وآداب معاملته بما لا نجده في فلسفة أو في دين آخر .

ومنه الوفاء في المعاملة ، والوفاء بالوعد ، والوفاء ببيعة الأمراء ، وقد جاء في حديث رواه البخاري (... فُوا ببيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم فإن الله ســـائلهم عمـــا استرعاهم) والحديث يأمر بإعانة الحاكم على الوفاء بالواجبات المفروضـــة علـــيه : ببذل النصح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعدم التملق له بما يتنافى مع الكرامة والفضيلة لأن ذلك يورث فساد الحكام ، ومن الوفاء أداء حقوق الرعية (...كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، ومن الوفـــاء عـــدم الخروج على الجماعة فإن (...من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتةً جاهليةً). رواه البخاري.

ومـــن الوفاء في الحرب : اتباع الشروط المقررة في الشريعة وعدم الخروج علـــيها. فلا يكون القتال إلا في سبيل الله تعالى مع مراعاة الآداب المشروعة وكان صلوات الله وسلامه عليه عند القتال ينهي عن المثلة وعن قتل المدنيين

وغير المحاربين من النساء والصبيان والخدم الخ ... ويأمر قواده باتباع ذلك. والذي يراجع قواعد الحرب في الإسلام يعلم أنه الدين العام الشامل لكل كمال.

ومـــنه الوفاء بالعهد ، وما نقض صلوات الله وسلامه عليه لمحافظ عهدا ولا أخلـــف لمراقـــب وعدا وكان يرتكب الصعب حفظا لعهده ووفاء بوعده حتى يبتدئ معاهدوه بالنكث.

وأوفى الوفاء تبليغ الإسلام ونشره ، قال تعالى ﴿ **لتُبَيِنَّه للناس ولا تكتُمونَه** ﴾ مـــن الآيـــة ١٨٧ ــ ســـورة آل عمران . وجاء في الحديث الشريف (ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب) و (طلب العلم فريضة على كل مسلم) و (إن الله لما أخـــذ العهد على الجهال أن يتعلموا أخذ العهد على العلماء أن يعلِّموا) ويتأكد على العارفين بيان الحق للناس إذا فشت الفتَن فمن كتم ما عنده من العلم حينئذ يكون كالجاحد للإسلام ، ومثله من حرَّفَ معاني النصوص يبتغي بها مرضاة الناس أو موافقة الإسلام للأيديولوجيات التي تنكر الأديان .

والوفـــاء كمـــا وضـــحته الشـــريعة المحمديـــة مـــن الصفات المشتركة بين جمـــيع الفضـــائل فكل خلق كريم يشتمل على صورة من صور الوفاء : فهو يرتـــبط بالشـــكر والأمانة وحب الخير والتضحية في سبيل الله تعالى والأمر بالمعـــروق والنهـــي عـــن المنكر والتعاون وحفظ الأخوة وصيانتها والعدل والصدق وعدم قبول المساومة في الحق ، والحلم والصبر ، والإحسان .

كمـــا يرتـــبط بالإخلاص وقد جاء في الحديث الشريف (إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يتقنه . قيل وما اتقانه ؟ قال يخلصه من الرياء والبدعة) .

ويرتبط بالرحمة : فالوفاء رحمة . عن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه عـــن النبي ﷺ قال (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) فمن لم يرحم الناس

بأداء عهد الله عز وجل وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ليس له عهد عند الله تعـــالى ، إذ لا يحق للمخلوق أن يرجو رحمة ربه إلا إذا أتى بموجباتها. وقد قال ﷺ في القاسي القلب أنه (بعيد من الله) .

والوفاء يرتبط بالعفة فمن الوفاء الابتعاد عما يقرب إلى المعاصي بأية صورة كانـــت . وقد فصّل صلوات الله وسلامه عليه كل ما يقرب إلى السوء ونهانا عـــنه ، وهذا التفصيل من الإعجاز المحمدي البالغ ، وإن جميع علوم النفس والتربية والأخلاق و الاجتماع لا يسعها سوى التسليم بذلك الإعجاز .

والوفـــاء يرتبط بالعفو ، ومنه عفوه صلوات الله وسلامه عليه عن أهل مكة جمـــيعا على ما صدر منهم ، ومنه وفاؤه صلوات الله وسلامه عليه لآل أبي طلحة حينما أبقى مفتاح الكعبة وسدانتها لهم ، ولا ننسى أن آل أبي طلحة كان بيدهم لواء قريش في حروبها ضد المسلمين.

والوفاء يرتبط بالحياء . روى مسلم عن النعمان بن بشير حديث (الحياء خير كلـــه) وروي عـــن ابن عمر حديث (الحياء من الإيمان) ورَوَى البخاري ــ وعـــند غيره مرفوعا ــ (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) فإذا ذهب الحياء ذهب الوفاء . والحياء لا كما نظن ، وإنما هو الحياء من الله ورسوله ﷺ .

والوفاء يرتبط بالتواضع . روى أبو داود في كتاب الأدب عن عياض التميمي حديث (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد) . ولا إعجاز كإعجازه صلوات الله وسلامه عليه في تواضعه مـــع علو مرتبته . عن أنس رضي الله تعالى عنه (إن كانت الأَمَةُ من إماء أهـــل المديـــنة لـــتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق : حيث شاءت حتي يقضيها حاجـــتها) ومـــنه احـــتفاؤه ﷺ بأهله من الرضاعة ؛ عن عمرو بن السائب

(أن رسـول الله ﷺ كـان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعـض ثوبـه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع له شق ثوبه من جانبه الآخر فجلسـت علـيه ثم أقبل أخوه[1] من الرضاعة فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه) وكان صلوات الله وسلامه عليه يبعث بكسوة إلى ثويبة مولاة أبي لهب وكانت قد أرضعته أياما ، ولما ماتت سأل عن قرابتها فقيل لا أحد . وكان ﷺ يقـول عن حاضنته أم أيمن الحبشية فيما رواه ابن عساكر (أم أيمن أمي بعد أمي) وكان يزورها في بيتها .

والوفاء يرتبط بالشكر على الجميل : عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال (وفَـدَ وفدُ النجاشي ، فقام النبي ﷺ يخدمهم ، فقال له أصحابه نكفيك ، فقال ﷺ (إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم) .

والوفاء يرتبط بحسن التدبير فإن الإنسان إذا ضاق تدبيره نكث وخالف وضاق ذرعا بعهده . وتأمل في حسن تدبيره صلوات الله وسلامه عليه بعد عقد صلح الحديبـية مباشـرة إذ جـاءه أبـو جـندل مسـلما فرده وفاءً بالعهد ، ولم يسـمح ﷺ لمـن جاءه في المدينة مسلما من قريش بالمكث عنده ، ثم أشار لهؤلاء بكيفية التخلص مما هم فيه دون أن ينقضوا العهد ، وذلك بالاتجاه إلى أية ناحية أخرى يستطيعون فيها أن يدفعوا أذى قريش ، فبيَّن لهم ﷺ أنه ليس مـن الرأي أن يقصدوا المدينة لأنه لن يأذن لهم بالإقامة فيها . فكان في هذه الإشارة ، خلاصهم من العذاب ، مع ما فيها من وفائه ﷺ بأداء النصيحة لمن أسلم ووقع في ورطة لا يعرف كيف ينجو منها .

---

[1] أبوه ﷺ من الرضاعة : الحارث بن عبدالعزى بن رفاعة ، وأمه من الرضاعة حليمة بنت عبدالله بن الحارث ، وأخوه من الرضاعة عبدالله بن الحارث وكلهم من بني سعد .

والوفـــاء يرتـــبط بالكـــرم : فالوفـــاء للأهل والأصحاب والناس يقتضي تفقد المحتاج، وإعانة المعدم : جاء في حديث بدء الوحي أن رسول الله ﷺ لما بدأه الوحي ، أخبر أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها بالخبر فقالت (والله مـــا يخـــزيك الله أبـــدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق) .

وكان رسول الله ﷺ يتعهد أهل الصفة فيرسل إليهم ما عنده. وانقادت لرسول الله ﷺ بـــلاد العرب وهو أزهد الناس فيما يُقْتَنَى ويدخر ، فكان يصل الناس بكـــل ما يجده حتى مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة أهله . ولم يـــورث ولده وأهله ملكا أو متاعا أو مالا ، قال الصديق الأكبر رضوان الله تعالى عليه (سمعت رسول الله ﷺ يقول " لا نورث ما تركنا صدقة") . فمن كان رسول الله ﷺ يعوله فأنا أعوله ومن كان رسول الله ينفق عليه فأنا أنفق عليه.

والوفـــاء بتعارض مع كل رذيلة ، فهو يتنافى مع الظلم وقد فصلت الشريعة المحمديـــة : أنـــواع الظلم وحرمتها كائنة ما كانت ، وفصلت طرق مقاومته ووضـــعت الأســـس النفســـية والاجتماعـــية والتشريعية والخلقية والسياسية والاقتصـــادية الخ ... التي تحول دون ظهوره ، وتقضي عليه إذا ما وجد ، وهذا من إعجاز الشريعة الذي ليس وراءه إعجاز .

والوفـــاء يتـــنافى مـــع الكـــذب وخلف الوعد والخيانة . جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن من إذا حدث كـــذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، وإذ خاصم فجر) وفي رواية وإذا عـــاهد غـــدر . وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال

(إن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان) والغدر هنا على عمومه في الدق والجل ، حتى قال العلماء لو أن الآسر قال للمأسور عاهدني على ألا تهرب وأنا أ سرحك من القيد ، فإن عاهده وسرحه من أجل عهده فلا يحل له الهرب . واقرأ قوله تعالى في بيان حل من نكث في العهد، ﴿ **ومنهم مَنْ عاهَد اللهَ لئنْ آتانا من فَضْلِه لنصَّدَّقن ولنكُونَنَّ من الصالحين -٧٥- فلما آتاهُم من فَضْلِه بَخِلوا به وتولَّوْا وهم معرِضون -٧٦- فأعقَبَهُمْ نفاقاً في قلوبِهم إلى يومِ يلقَوْنَهُ بما أخلَفوُا الله ما وَعَدوهُ وبِما كانوا يكذِبون -٧٧-** ﴾ سورة التوبة .

والوفاء يتنافى مع الاستغلال في المعاملات : فَربُّ العمل يجب ألا يستغل عماله وأن يوفيهم أجورهم ولا يغمطهم ويعتبر ذلك ذكاء منه وسعة حيلة ، وليس هذا من قبيل الوعظ ، ولكنه التشريع . التشريع :ـ فالمجتمع وأفراده مسئولون عن مقاومة الاستغلال أيا كان والتاجر يجب أن يوفي المشتري فلا يطفف في الكيل والميزان ﴿ **ويلٌ للمُطفِّفينَ -١- الذين إذا اكتَالوا على الناس يَسْتَوْفون -٢- وإذا كالوهُمْ أو وزَنُوهُم يخسِرون -٣- ألا يظن أولئك أنهم مبعوثونَ -٤- ليوم عظيم -٥- يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين -٦-** ﴾ سورة المطففين .

والوفاء يتعارض مع الغش ، ومنه الغش التجاري ، والسياسي و الصناعي والغش الأدبي الخ ... والطالب لا يغش في الامتحان ، والموظف لا يغش في الوظيفة ، والحاكم لا يغش الرعية : روى الشيخان عن معقل بن يسار أن النبي ﷺ قال (ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) . وجاء في حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه (من غشنا فليس منا) .

والوفـــاء يتـــنافى مع الزور وهو في الإسلام من أكبر الكبائر ، وقد بينت الشريعة معناه وفصلت أنواعه .

بـــل إن الإسلام أمر الناس بالوفاء للحيوان : فقد جاء في الحديث (في كل ذات كبد حـــراء أجر) ، ودخلت امرأة النار في هرة حبستها ، ودخل رجل الجنة لأنه سقى كلـــبا يلهـــث مـــن شدة العطش ، ومر رسول الله ﷺ على راحلة مربوطة أمام دار رجـــل من أول النهار إلى آخره ، ولم يجد أثرا لما تأكله الدواب أمامها ، فاستدعى صـــاحبها وأمره أن يحسن رعايتها . فكما أن الإنسان يستخدم الحيوان فيخدمه فيما يســـتعمله فـــيه ، فعلى الإنسان ألا يكون أقل مرتبة في الوفاء من الحيوان ويقتضي هـــذا أن يقوم بحقه . بل كان ﷺ ينهى من يوجع دابته بالضرب ، لأن ذلك مناف للرفق .

والوفاء لا يتم إلا بمجاهدة النفس حتى تنقاد لما شرعه الله عز وجل .

عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال (قدم النبي ﷺ من غزاة فقال ﷺ: قدمـــتم خير مقدم . وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا وما الجهاد الأكـــبر ؟ قـــال مجاهدة العبد هواه) وجاء في حديث رواه البخاري عن عمرو بن عوف الأنصاري (أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء من البحرين ؟ قالوا أجل يا رسول الله ، قال : فابشروا واملوا ما يسركم . فوالله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكـــن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم) ومجاهدة النفس ليست من المغالاة في شيء، عـــن أنـــس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (أما والله إني لأخشاكم لله وأتقـــاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فلـــيس منـــي) رواه البخاري . وروى أبو نعيم في الحلية أن عمرو بن العاص لما زوج ابنه عبدالله اعتزل زوجته ليتفرغ للعبادة فشكاه أبوه إلى رسول الله ﷺ ، فبين له صلوات الله وسلامه عليه وجه الحق ثم قال (إن لكل عابد شرة ، وأن لكل شرة فـــترة ، فإما إلى سنة ، وإما إلى بدعة ، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك).

وأنــواع الوفــاء ودرجاتــه كلها يجمعها الوفاء بالأمانة ، والأمانة هنا هي الشريعة الإلهــية التي كلف الله تعالى عباده بها ، وتشمل جميع الحقوق والواجبات المطالب بهــا الإنســان . فالمراتــب العليا من الوفاء الكامل تنحصر في أداء الوحي وتبليغه وبــيانه للــناس ، ويقتضي ذلك أن أوفى الخلق هم المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم ، ولما كانت الشريعة المحمدية هي الشريعة الشاملة للكمالات كلها لأنها تدور حــول الإعجاز القرآني للعالمين ، فإن أعلى مراتب الوفاء على الإطلاق هي الوفاء ببلاغ القرآن العظيم وبيانه ، ومن هذا يمكن أن تتصور خصلة الوفاء اللائقة بمرتبة صاحب الشريعة الخاتمة الشاملة صلوات الله وسلامه عليه .

ولمــا كان صلوات الله وسلامه عليه هو السبب الموصل لكل خير مَنّ الله تعالى به علينا في الدنيا والآخرة ، ولما أنه الأصل في كل خير وله فيه السبق حسا ومعنى ، إذ مــا من فضيلة إلا وكان أصلاً في بيانها للعالمين ، فإن الوفاء له ﷺ يحتم علينا الاهتداء بهديه والتمسك بما جاء به .

ويــتفاوت كــل مخلــوق ــ أيّاً كانت ملته في الوفاء بقدر قربه أو بعده عن الهدي المحمــدي ، هــذا هــو المعــيار الأعلى الذي نقيس به الوفاء ، بل الذي نقيس به الإيمــان. جــاء في حديث رواه الشيخان عن أنس رضي الله تعالى عنه (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) والحديث يرشدنا إلى أصــح الطــرق وأقربها إلى الحق وإلى الفوز المبين في الدارين : إذا ما حال بينك وبين كمال حبه ﷺ ، سيحول بينك وبين اتباع هديه ، وحقيقة الإيمان تقتضي اتباعه ﷺ فــلا ترتاح النفس إلا فيما جاء به ﴿ **فلا وربّكَ لا يُؤْمنُون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهُمْ ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرجاً مما قَضَيْتَ ويُسَلّموا تسليما-٦٥** ﴾ سورة النساء. ﴿ **فــإن تَنازَعْــتُم في شيءٍ فَرُدّوه إلى اللهِ والرسُولِ إن كُنْتُم تؤمنونَ باللهِ واليوم الآخرِ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا** ﴾ من الآية ــ ٥٩ ــ سورة النساء .

١- " بل تمتعني وتردني "

أصـــاب المسلمون يوم حنين رجلا من بني سعد بن بكر فساقوه وأهلَه وساقوا معهـــم الشـــيماء[١] بنـــت الحـــارث بن عبدالعزى ، أخت رسول الله ﷺ من الرضـــاعة ، فقالـــت (تعلمـــوا والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة) فلم يصـــدقوها حـــتى أتـــوا بها إلى رسول الله ﷺ . فعرفها ﷺ وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها فقال (إن أحببتِ فعندي محبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمـــتعك[٢] وترجعـــي إلى قومك فعلت) . فقالت : " بل تمتِعني وتردني إلى قومي " .

فأعطاها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها .

٢- " فإذا حضر جداد[٣] نخلكم فآذني[٤] "

استشـــهد عبدالله بن عمرو بن حزام الأنصاري الخزرجي في غزوة أحد وهو معـــدود فـــي أهـــل بيعة العقبة الثالثة ، وكان من النقباء ، وهو من أهل بدر واستشـــهد أيضـــا فـــي غـــزوة أحد زوج ابنته : عمرو بن الجموح ، وكانا متصـــافيين في الدنيا ولذا أمر ﷺ بدفنهما معا في قبر واحد رضي الله تعالى عنهما .

قـــال جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما (لقيت رسول الله ﷺ . فقال يا جابـــر مالـــي أراك منكسرا ؟ فقلت : يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالا ودَيْناً .

---

[١] ذكر السهيلي وأبو ذر الخشني وابن حجر أن اسمها خذامة ، وفي الطبري والطبقات لابن سعد أنها جدامة ، وغلب لقبها على اسمها فلا تعرف إلا بالشيماء ، وقد تحذف الياء فيقال الشيماء.

[٢] أعطيك .

[٣] قطع ثمر النخيل .

[٤] فأخبرني .

فقال ﷺ " ألا أبشرك بما لقي الله به أباك ؟ " قلت : بلى . قال : " ما كلم الله أحد قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلمه كفاحا ، وقال : يا عبدي تمن علـــي أعطيك . قال : يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية . قال الرب تعالى : قد سبق مني أنهم لا يرجعون . قال : إي رب فأبلغ من ورائي[1]).

وخـــرج جابر بن عبدالله بن عمرو غازيا[2] مع رسول الله ﷺ وكان من عادة رسول الله ﷺ أن يسير وراء الناس ، فيُزْجِي الضعيف ، ويعين ذا الحاجة ، وإذا بجابـــر قـــد أعييَ ناضِحه[3] وكان هزيلا فبرك ، فأدركه رسول الله ﷺ فأعانه حتى ركب وساير رسول الله ﷺ : فسأله ما ترك عبدالله من الولد ؟

قال جابر :

قلـــت سبع[4] نسوة . قال : أترك عليه دينا ؟ قلت نعم . قال ﷺ : فإذا قدمت المدينة فقاطعهم[5] ، فإن أبوا ، فإذا حضر جداد نخلكم فآذني ، ثم سأله ﷺ : هـــل تزوجـــت ؟ قال جابر : قلت : نعم قال : بمن ؟ قلت بفلانة بنت فلان ، بـــأيم[6] كانـــت بالمدينة . قال : فهلا فتاة تلاعبها وتلاعبك؟ وكان جابر في الحلقـــة الثلاثيـــن من عمره . قال جابر : قلت يا رسول الله كن عندي نسوة خرق[7] ــ يعني أخواته ــ فكرهت أن آتيهن بامرأة خرقاء ، فقلت هذه أجمع لأمري . قال : قد أصبت ورشدت .

---

(1) أخـــرجه الـــترمذي وحسنه . والحاكم وصححه ، وأخرج أبو نعيم نحوه في الحلية من طريق عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها جـــ ٢ ص-٤ .

(2) هي غزوة ذات الرّقاع في جمادى الأولى سنة أربع .

(3) الناضح : الجمل الذي يستقى عليه .

(4) في رواية البخاري أنهن ست ، وهذه الروية تستثني زوجة عمرو بن الجموح .

(5) أي أجعل لهم غلة التمر نظير دينهم .

(6) الأيم : الثيب .

(7) لا خبرة لهم بالحياة .

وفـــي روايـــة ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قال لجابر : (أتبيعني جملك هذا يـــا جابر ؟ فقال جابر: يا رسول الله ، بل أهبه لك . قال : لا ، ولكن بعنيه. قـــال جابر : فسُمْنِيه يا رسول الله .) فلم يزل يرفع ﷺ لجابر في الثمن حتى رضي. وحينئذ قال جابر : أفقد رضيت يا رسول الله ؟ فقال : نعم. قال جابر: فهو لك . قال ﷺ : قد أخذته . ولما قدم المدينة ، أعطاه ثمنه وقال له (يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك).

ولما حضر جداد النخل جاء جابر فأخبر رسول الله ﷺ : وفي رواية البخاري من طريق الشعبي عن جابر قال ﷺ " أدع أصحابك" فما زال يكيل لهم حتى أدى الله أمانـــة والدي وأنا راض أن أؤدي أمانة والدي ولا أرجع إلى أخواتي بـــتمرة ، فسلم والله البيادر[1] ـــ كلها حتى انظر إلى البيدر الذي عليه رسول الله ﷺ كأنـــه لم ينقص منه تمرة واحدة ، و كان من الغرماء ـــ فيما أخرجه الشيخان ـــ يهودي له ثلاثون وسقا .

والقصة عدا ما اشتملت عليه من الوفاء وآداب المواساة والمساعدة والعطاء ، يؤخذ منها :

١- مسئولية القائد عن سلامة الجنود وإغاثتهم .

٢- تَفَقُّد الحاكم لشئون الأفراد من الرعية .

٣- أن المواساة لا تكون بالقول فقط ، وقد اعتاد الناس الاقتصار على التعزية شفويا أو تحريريا ، مع أن المواساة الحقيقية تكون بالعمل.

٤- ويؤخذ منها إعانة غير القادر على أداء دينه .

---

(١) الأكـــوام .

٣- " المحيا محياكم والممات مماتكـــم "

أشرقت على قلوب الأنصار شموس الإيمان وقادتهم هواتف العناية ، وجذبتهم ســـابقة الاصـــطفاء فآمنوا برسول الله ﷺ ، وبايعوه على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعاهدوه على ألا ينازعوا الأمر أهله ، وأن يقولـــوا الحـــق أينما كان ، لا يخافون في الله تعالى لومة لائم ، وأن يمنعوا رســـول الله ﷺ ممـــا يمنعون منهم أنفسهم ، ويقاتلوا في سبيل الله تعالى من يقاتله ، وآووا المهاجرين وقاسموهم ما بأيديهم . وقد أثنى القرآن الكريم على الأنصـــار ونصـــرهم لرســـول الله ﷺ وكافـــأهم الله تعالى بأن جعل مدينتهم المشرفة هي المقر الذي سطع فيه نور الإسلام فعم العالمين . وصرح الحديث الشـــريف بفضـــلهم فـــي مواطـــن كثيرة ليعرف العالمين منزلتهم. يقول ﷺ (الأنصار شعار والناس دثار[١]) .

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة استوجس الأنصار خيفة إذ خشوا أن ينتقل رسول الله ﷺ من المدينة ويتخذ مكة دارا لمقامه ، ويعزز ذلك أنها البلد الحرام وأنه مقر قبلة المسلمين ــ الكعبة ــ وبعد هذا وذاك فإنها سكن قوم رسول الله ﷺ، وهو أوفى الخلق بالذمم . فقالوا فيما بينهم (أترون رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟) . كان رسول الله ﷺ يخطب على الصفا ، فلما فرغ قال : ماذا قلتم ؟ قالوا لاشيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال صلوات الله وسلامه عليه " معاذ الله . المحيا محياكم والممات[٢] مماتكم".

---

(١) لا يســـمي البشـــرة ثوبان معا: إنما يمسها شعار وما فوقه دثار : وإنما كانوا الشعار لتحققهم باستقبال رسول الله ﷺ فكان مقرهم هو مهاجر رسول الله ﷺ ولتحققهم بحب من هاجر إليهم حبّاً في الله ورسوله ﷺ . وكوفئوا بأن كان بلدهم هو الحرم الثاني بعد مكة المكرمة : والناس دثار لأن كل ما يفعلونه فهو وراء هذا الشعار .

(٢) هذا من معجزاته ﷺ إذ هو تصريح بوفاته ﷺ بالمدينة .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الطائف ورجع إلى الجعرانة ، وكان قد ترك بها أسرى حنين وغنائمها ، رد الأسرى إلى قومهم ، وتعجل الناس قسمة الفيء ، ولا نظن لهذه العجلة من سبب سوى أن العامة ظنوا أنه ﷺ سيرد الغنائم كما رد الأسرى . فاتبعوا رسول الله ﷺ يقولون " أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم" حتى الجؤوه إلى شجرة ، فعلق رداؤه بفروعها فقال ﷺ (أدوا علي ردائي أيها الناس . فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا " ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعله بين أصبعيه ثم رفعها فقال (أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم . فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال : يا رسول الله ، أخذت هذه الكمية أعمل بها برذعة بعير لي دبر ، فقال ﷺ : " أما نصيبي منها فلك . ثم قال: أما إذ بلغت هذا فلا حاجة لي بها ، ثم طرحها من يده. ورجع عقيل بن أبي طالب إلى امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، فأخذ منها إبرة كان قد أعطاها لها وألقاها في الغنائم .

ووزع رسول الله ﷺ الغنائم ، فأعطى المؤلفة قلوبهم وكانوا من أشراف قريش وآخرين من العرب مائة من الإبل . وأعطى رجالاً من قريش والقبائل خمسين ، خمسين ، فتجدد خوف الأنصار : وكثرت منهم القالة حتى قال قائلهم " لقي والله رسول الله ﷺ قومه" وهز في نفوسهم تمييز القرشيين عليهم في العطاء ، وحرمانهم منه ، ولم يفهموا السر في هذا التمييز ، وفسروه على أنه تقديم لقريش عليهم .

ودخل سعد بن عبادة الساعدي الخزرجي على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا[1] عليك في أنفسهم ، لما صنعت في

---

[1] عتبوا .

الفـــيء الـــذي أصبت ، قُسِمْتَ في قومك ، وأعطيَت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

فقال ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي . يعني أنه يرى رأيهم .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة .

فخـــرج ســـعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، وجاء رجال من المهاجرين فـــتركهم ، فدخلوا ، ورد آخرين . فلما اكتمل جمعهم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار .

فأقـــبل رسول الله ﷺ ، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : يا معشر الأنصار مقالة[1] بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله ، وعالة[2] فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال صلوات الله وسلامه عليه : ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

قال ﷺ : (أما والله لو شئتم لقلتم ، فَلصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُم : أتيتنا مكذَّبا فصدَّقْناك، ومخذولا[3] فنصرناك وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك[4] . أوجِدْتُم يا معشر الأنصـــار في أنفسكم في لُعاعة[5] من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليُسْلِموُا ، ووكلتُكُمْ إلى إسلامكم؟!

---

[1] القول الذي قالوا وكان من عادة رسول الله ﷺ إذا بلغه عن أحد شيئا لا يعجبه لا يسمي قائله وهذه قاعدة من قواعد التربية الكاملة .

[2] فقـــراء .

[3] ليس لك من ينصرك .

[4] فواسيناك بمالنـــا .

[5] البقلة الخضراء الناعمة . شبه نعيم الدنيا بها .

ألا ترضـــون يـــا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالشاةِ والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصـــار ، ولـــو ســـلك الناس شِعْباَ[1] وسلَكَتِ الأنصار شِعبا لسَلَكْتُ شِعب الأنصـــار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .) فبكى القوم حتى اخضلت[2] لحاهم : وقالوا (رضينا برسول الله قسما وحظاً) .

للأنصار مواقف مشهودة ، وكلها دلائل على شدة حبهم لرسول الله ﷺ : لما بلـــغ رســـول الله ﷺ خـــروج قـــريش قبل وقعة بدر. استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانية فتكلموا أيضا وأحسنوا ثم استشارهم ثالـــثا ، ففهـــم الأنصار أن رسول الله ﷺ إنما يعنيهم فبادر سعد بن معاذ سيد الأوس فقـــال " كـــأنك تعرِّض بنا ، لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم . وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم : فاظعن حيث شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذتَ مـــنا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرَت فيه من أمر ، فأمرُنا تَبَعٌ لأمرِك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ برك[3] الغماد لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك ".

---

(1) طريقا بين جبلين ــ وفي بعض الروايات شعبة : أي طريقا وتطلق أيضا على المسيل الذي يجري فيه ماء المطر بالجبال والهضاب .

(2) ابتلت .

(3) قال ابن الأثير في النهاية أنه موضع باليمـــن .

وتأمل موقفهم في غزوة أحد وفي غزوة الخندق وكلها مواقف تفيض بالبطولة والتضحية المتدفقة من الإيمان بالله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

فَلِمَ وُجد الأنصار على قسمة الغنائم في حنين؟

اختلط بالمسلمين في هذه الوقعة بعض المنافقين أمثال ذي الخويصرة التميمي الذي قال فيه ﷺ (سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية) ، وهؤلاء نشروا الشائعات حول ترك رسول الله ﷺ المدينة والإقامة في مكة مع قومه ،و استدل من مال من الأنصار إلى تصديق ذلك : بمنع غنائم مكة مع أنهم قد أوجفوا على أهلها بالخيل والركاب ، ومن قسمة غنائم حنين ، وأثار هذا حزَنهم وأساهم .

فأمر رسول الله ﷺ بجمعهم ليطهِّر قلوبَهم مما جال في نفوسهم .

لاشك أن موجدة الأنصار إنما جاءت من شدة تعلقهم برسول الله ﷺ ، مما جعلهم ينظرون إلى ترجيح قريش عليهم في العطاء بمثابة المقدمة لإقامته ﷺ بين قومه ، وتملّكَهم هذا الفهم إلى درجة غيبت عنهم الحكمة في العطاء ، وأنستهم أن حرمانهم الموهوم إنما هو من قبيل البذل في سبيل الله تعالى ، وجدير بمن كان في مثل مكانتهم أن يتسابق إليه لا أن يجدّ في نفسه منه .

بدأ رسول الله ﷺ بما يجب عليهم أن يتذكروه فبيَّن فضل الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه على الأنصار ، ثم بين حسن بلاء الأنصار في دين الله تعالى ، وهذا البيان يزيل أية موجدة في الحال إذ لا يقاس شيء بفضل الله تعالى وفضل رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

فذكَّرهم ﷺ بهدية الله تعالى لهم ، وذكَّرهم بما كانوا عليه وما هم عليه الآن: كانوا فقراء فأغناهم الله تعالى ، فالبذل في سبيل الله تعالى ليس بغرامة يغرمها الإنسان بل هو الطريق إلى الغنى الحقيقي ، وكانوا أعداء لا ينتهي سفك الدم بينهم ، فألف بين قلوبهم وأصبحوا إخوانا متحابين في الله تعالى ، وإذا ما تذكر الإنسان نعم الله تعالى عليه ، شكر ، وإذا ما شكر رضي ، وذهب ما في نفسه من دورات الهم و الحزن وحالاً تذكَّر الأنصار ، رجعوا إلى رسول الله ﷺ ، وشكروا الله تعالى ورسوله.

وحينئذ شرع رسول الله ﷺ في بيان حسن بلاء الأنصار ولما أن الحياء من الله عز وجل ورسوله صلوات الله وسلامه عليه قد يكون هو المانع من الجواب : أخبرهم رسول الله ﷺ بما يمكن أن تتحدث به النفس ولا تظهره ، أو بما يمكن أن يقال للأنصار من الأعراب فذَكَرَ صلوات الله وسلامه عليه تصديقَهم ونصرَهم وإيواءهم ، ومواساتهم . وهذا كله حجة لهم في الظاهر ، وحجة عليهم في الواقع ، فالإيمان يحتم عليهم الطاعة في العسر واليسر ، فالذي يحتمه الإيمان من التصديق والنصر والإيواء والمواساة ، كيف ينقلب إلى مطالبته صلوات الله وسلامه عليه بما هو فرض واجب عليهم بمجرد إيمانهم ، ولا يمكن لإنسان أن يطالب في مقابل إيمانه بمال أو متاع .

أزال هذا البيان المحمدي البليغ كل أثر في نفوس الأنصار رحمة بهم ، وبقي شرح ما غمض على البعض في قسمة الغنائم ، و تبديد ما علق بالذهن منه ، وتخطئة من ربطه بأي شئ آخر.

إن العطاء يقصد به تأليف رءوس قريش والقبائل على الإسلام : وهؤلاء إذا أسلموا وحسن إسلامهم لم يتخلف من أقوامهم أحد ، وفي هذا مافيه من تقوية

الإســـلام ونشره ، فلو وضعت الغنائم بأسرها لمصلحة الدين وأهله لما خرج ذلـــك عن مقتضيات الحكمة والعدالة . وتأمل قوله صلوات الله وسلامه عليه (أوجدتـــم يـــا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟!) وهذا من جوامع كلمه ﷺ فمهما كان البذل فـــي سبيل هداية الإنسان كان هذا قليلا بجانب إسلامه . والمؤمن الحق يحول إســـلامُه وإيمانُه دون التعلق بلعاعة من الدنيا تمنعه من أداء أوجب الواجبات علـــيه وهـــو نشـــر الإسلام وتبليغه . فالدنيا وما فيها لا تقاس بنعمة الإيمان والهدايـــة . وفـــيه تنبيه للأنصار : فإن مقامهم أعلى من مقام الأخذ ، والذي يناسبهم هو البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى .

وتـــأمل فـــي قولـــه ﷺ " لولا الهجرة" ولم يقل " لولا قريش" فالهجرة نسبة اقتضاها الجهاد في سبيل الله عز وجل . كما أن الأنصار نسبة اقتضاها نصر دين الله عز وجل فلا رابطة إلا في الله تعالى : فهناك مهاجرون وأنصار من هذه الحيثية لا قرشيون وقبائل وأوس وخزرج . ويكفي الأنصار أنه ﷺ جعل أرضهم دار هجرته ﷺ .

ثم بدد ما في النفوس بصدد عودته ﷺ إلى المدينة مع الأنصار وهو صلوات الله وسلامه عليه أوفى الخلق بالذمم ، ولن يفضّل الإقامة بين قومه وفي بلده على الإقامة بين هؤلاء الذين آووه ونصروه ، فهو لا يفارقهم مدى حياته وهو ملازم لهم إلى وفاته مهما حدث أو جد .

ونـــبه صـــلوات الله وســـلامه عليه الأنصار إلى أنهم هم الفائزون حقا : فإذا مـــا قيســـت إقامـــة رســـول الله ﷺ بينهم ، بما أخذه الناس لم يكن ذلك شيئا مذكـــورا، فإعطـــاء الشـــاء والبعـــير أشبه بإعطاء الصغير ما يناسب عقله

ومعرفـــته، وإقامة رسول الله ﷺ بينهم هو إعطاء العاقل الحليم المؤمن القوي العالي الهمة ما يناسبه ، ولا نعمة أتم وأكمل على قوم من إقامة رسول الله ﷺ بينهم وهو السببُ في كل نعمة ، فعلام يجدون !

إن الجهاد كله في سبيل الله تعالى لا من أجل كسب ولا مغنم ، وعلى المؤمن ألا يـــتوقف عن البذل إذا ما أدى ذلك إلى تأليف الناس على الإسلام وجذبهم للإيمان وهو الغاية القصوى .

ولكيلا يقع في نفوس الأنصار ــ بعد أن بتين لهم الحق ــ أنهم قد أتوا كبيرة من الكبائر فيوشك أن يحل بهم سخط الله تعالى ، طمأنهم رسول الله ﷺ : بأن الناس لو اجتمعوا جميعاً لما اختار إلا الأنصار ، ودعا لهم هذا الدعاء الجامع الـــذي يغـــبط عليه الأنصار (اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصـــار) .

يقول الإمام المربي السيد علي وفا بن محمد وفا (ت ٨٠٧هـــ):

(فاعرف يا أخي الأنصار بسيماهم ، فهذه آيتهم لمن توسم . ولا تقيدهم بقبيلة ولا طائفة سوى من بهم هذه العلامة مَنْ كانوا وأينما كانوا { يحبون من هاجر إلـــيهم ويذهب الناس بالدنيا ويرضون رسول الله ﷺ في رحالهم } . يريد أن من تحقق بوصفهم فهو منهم .

٤- " لا يصلح لنا في ديننا الغدر[١] "

في شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة علمت قريش أن رسول الله ﷺ قد غادر المدينة في ١٤٠٠ من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ، ليعلم الناس أنه إنما خرج لزيارة البيت الحرام فلا تتعرض له قريش بقتال .

أوقع هذا الخبر قريشاً في حيرة كبرى تركتها لا تدري ماذا تصنع ووضعها في مأزق حَرِج أجبرها على توقيع صلح الحديبية مع المسلمين.

ذلك لأن قريشا بحكم وظيفتها ومكانتها يجب عليها أن تيسر زيارة البيت الحرام لكل راغب ، وحينئذ لا مناص من أن تأذن للمسلمين بزيارته ، وخشيت قريش نتائج هذه الزيارة ، و عملت حساب عواقبها ؛ فلو شهدت بطون قريش رسول الله ﷺ وأصحابه يطوفون بالبيت ، ولو رأى القرشيون هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم بالأمس وقد بلغوا من المنعة والعزة مالم يطرأ على بال ، ولو اختلط فتيان قريش بالمسلمين ، إذن لانْفَتَحَ بابُ الإسلام على مصراعيه لمن يريد أن يدخله ، ولفكر في دخوله من لم يفكر في ذلك من قبل : وهذا ما لا ترضاه قريش .

فهل تمنع المسلمين إذن من زيارة البيت ؟ إنها لو فعلت ذلك لكانت الفضيحة المدوية بين العرب : وكيف تستطيع أن تدَّعي ــ لو فعلت هذا ــ أنها تيسر الحج والزيارة لمن أراد ! ومن يصدقها وهاهي تصد المسلمين عن البيت الحرام ! لا أقل من أن يؤدي هذا الموقف إلى سقوط قريش في نظر العرب ولو من الناحية الدينية ، وهي أهم النواحي التي تعتز بها ، بل ومن يدري فقد

---

[١] من الوفاء في المعاهدات السياسية .

تـــتطور القضية من دور الصراع بينها وبين المسلمين إلى صراع بينها وبين العـــرب مـــن أجل صدها الناس عن زيارة البيت الحرام ، وهو عدوان يأباه ولا يرضاه عربي ؟!

بقي أن تقاتل قريش المسلمين ، وهذا أدهى وأمر ، فهو خروج من ورطة إلى مـــأزق أشد وأنكى ، بإشعال حرب سيؤيد فيها العرب جميعا المسلمين ، ولن تجـــد من بينهم من يقف إلى جانبها ، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه وتكون الهزيمة التي لا مفر منها .

إن هـــذه الـــزيارة الســـلمية الفجائية قد نزلت على قريش نزول الصواعق ، إذ كانـــت آخـــر مـــا يمكن أن تفكر فيه ، ولذا لم تعمل لها حسابا ، واجتمع القرشيون في ذي طوى وأقسموا على منع المسلمين من دخول مكة ، أما كيف يتم ذلك فهذه مسألة يحلها الرأي والتدبير .

ولـــو طلب زعماء قريش من الناس أن يقسموا على منع المسلمين من زيارة البيـــت ، لما وجدوا من يقسم معهم على ذلك ، ولا من يؤيدهم ولكنهم أقسموا علـــى منع المسلمين من دخول مكة بحال القول : بأن المسلمين إنما قد جاءوا متعرضين لا زائرين . وفاتهم أن رسول الله ﷺ قد أعلن العمرة وساق الهدي ليقطع أي حديث يقال مثل هذا .

وعمـــل القرشيون على استدراج المسلمين إلى القتال واستفزازهم للدخول في الحرب . وأول تدبير من هذا القبيل هو تعهدهم بصد المسلمين عن دخول مكة فإذا ما بلغ خبر هذا العهد إلى المسلمين أثار حفيظتهم ودعاهم إلى الاشتباك ، هذه ناحية . ومن ناحية أخرى أرسلوا خالد بن الوليد في مائتين من الفرسان ، وســـار في خيله إلى كراع الغميم على مسيرة ثمانية أميال من عسفان وعلم رســـول الله ﷺ بـــتحركات خـــالد بن الوليد وما هو المقصود منها ، ففوت

الفرصة على المشركين . قال صلوات الله وسلامه عليه (من رجل يخرج بنا علـــى طريق غير طريقهم التي هم بها ؟) فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، فســـلك بهم طريق وعرا كثير الحجارة بين الشعاب حتى شق ذلك على المســـلمين ، فأمـــر رســـول الله ﷺ أن يســـلكوا طـــريقا آخـــر تفضي بهم إلـــى الحديبـــية[1] ، وعلم خالد أن المسلمين قد سبقوه نحو مكة فرجع مسرعاً بمن معه.

ولـــم يكـــن من المنتظر أن تسمح قريش للمسلمين بدخول مكة ، وإزاء خطة المســـالمة التـــي ســـلكها المسلمون كان من المحتم على قريش أن تدخل في مفاوضات معهم ، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله (لا تدعوني قريش الـــيوم إلـــى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها) وأمر بنزول المسلمين في الحديبية .

ولمـــا اطمأن المسلمون في مكانهم ، جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال مـــن خـــزاعة ، يستفهمون عن سبب مجيء رسول الله ﷺ فعلموا أنه لم يأت يـــريد حـــربا وإنمـــا جاء زائراً للبيت . فرجعوا إلى قريش فقالوا (يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ، إن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيـــت) فـــاتهموهم وجبهوهم[2] وقالوا (وإن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدث بذلك عنا العرب) .

تلبـــيس وتضليل آخر يصطنعه زعماء قريش ، وإلا فمن قال إنهم سيدخلونها عـــنوة؟ وهـــاهم يصـــرِّحون لرســـل قريش بأنهم لا يريدون حربا ولا قتالا

---

[1] شمال غرب مكة بثلاثين كيلومترا وهي على حدود الحرم وبها علما الشميسي .

[2] خاطبوهم بما يكرهـــون .

ولا يقصـــدون ســـوى زيارة البيت الحرام . ولا يمكن أن تكون زيارة البيت عنوة فلفظ "عنوة" قد أقحمته قريش "عنوة " لتبرر صد المسلمين عن البيت ، وأفعالهم تثبت أنهم هم الذين يصدون الناس عن البيت عنوة .

وأخـــذت رسل قريش تتردد على المسلمين ، وكانت خطة قريش مبنية على اســـتخدام طـــريق الوعـــيد لعل المسلمين يرجعون من حيث أتوا تحت وطأة الـــتهديد وفي نفس الوقت حاول القرشيون سلوك جميع طرق الاستفزاز لعلهم ينجحون في إثارة المسلمين فيصدر منهم أي عدوان يبرر قتالهم أو صدهم.

وكانـــت رســـل قـــريش حينما يعلمون بقصد المسلمين يوافقونهم على هذا ، فيعـــنفهم زعمـــاء قـــريش ويحقرون رأيهم ، ولما أرسل إليهم رسول الله ﷺ خـــراش بـــن أمـــية الخزاعـــي عقـــروا بعيره وأرادوا قتله لولا أن منعتهم الأحابيش ، فخلوا سبيله ــ وأرسلت قريش ما بين الأربعين والخمسين رجلا وأمـــروهم أن يطيفوا بمعسكر المسلمين ليصيبوا منهم أحدا فأخذهم المسلمون أخـــذا وأتـــوا بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم . وكانوا قد رموا المسلمين بالنبل و الحجارة .

ولـــولا خشية قريش من العرب لأنشبت القتال ، ولما رأى زعيم الأحابيش ــ حلفـــاء قـــريش ــ ما ترتكبه قريش من الصد عن البيت الحرام هددهم بقوله (يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ! أيصد عن بيت الله من جاءه معظما ! والذي نفس الحليس بيده لتخلُنّ بين محمد وما جاء لـــه أو لأنفـــرن بالأحابـــيش نفرة رجل واحد) فقالوا له : (مه ــ كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به !)

وأرسل رسول الله ﷺ إلى قريش عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، فاحتجزته قريش وأرسلت الشائعات بأنه قد قتل ، فرد رسول الله ﷺ على هذا بأن دعا المسلمين لمبايعته على عدم الفرار ، حتى تيأس قريش من كل تهديد تسلكه وتعلم أن ذلك لا يجديها نفعا ، ولما وجدت أنها من المستحيل أن تشعل حربا لا مبرر لها سوى الصد عن زيارة البيت ، فإنها أصبحت في موقف المجبر على الصلح وهذا هو المقصود . وقد نص القرآن العظيم على هذه البيعة الهامة التي كانت سببا فيما جاء بعد من الأمور التي أفضت إلى فتح مكة نفسها ، فقال جل ثناؤه ﴿ **إن الذين يُبَايِعُونَك إنَّما يُبايعونَ اللهَ يدُ اللهِ فوق أيديهِمْ فمن نَكَثَ فإنما ينكُثُ على نفسه ومن أوفى بما عاهد عَليه الله فَسيؤتيه أجرا عظيما** ﴾ ١٠ ــ سورة الفتح . وقال تعالى ﴿ **لقد رضي اللهُ عَنِ المؤمنين إذ يُبايعُونَ تحت الشجرة ، فعلمَ ما في قُلُوبِهم فأنزل السكينة عليهم وأثابَهُمْ فتحاً قريبا** –١٨– **ومغانمَ كثيرةَ يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما** –١٩– **وعَدكمُ اللهُ مغانمَ كثيرةَ تأخذونها فعجَّلَ لكم هذه وكف أيْدِيَ الناس عنكم ولتكُون آيةَ للمؤمنين ويهديَكُمْ صراطاً مستقيما** –٢٠– **وأخرى لم تقْدِرُوا عليها قد أحاطَ اللهُ بها وكان الله على كلِ شيءٍ قديرا** –٢١– **ولو قاتلكم الذين كَفَروا لَوَلَّوُا الأدبارَ ثم لا يجِدون وَلِياً ولا نَصيرا** –٢٢–) سورة الفتح ــ وهذه هي بيعة الرضوان .

زادت دقة موقف قريش حين وجدت أن رسول الله ﷺ غير مبال بتهديدها أو وعيدها ، مما فَوَّتَ عليها كل فرصة لاستدراج المسلمين إلى القتال ، وهاهي بيعة الرِّضْوان قد قطعتْ على قريش كل أمل . فلم يكن هناك مناصٌ من طلب الصلح . فاتفقوا فيما بينهم على إرسال أحد زعمائهم ــ سهيل بن عمرو ــ لمفاوضة المسلمين ، ورسموا له الشرط الأساسي الذي يجب أن يشمله الصلح ، فقالوا له (إئْتِ محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عَامَهُ هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا) فكانت قريش في موضع المضطر لقبول شروط يشترطها عليهم رسول الله ﷺ في مقابل رجوع المسلمين في عامهم هذا .

ولما رأى رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو مقبلا قال (أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل) .

إن المفاوضة تحتاج إلى بَداهة حاضرة وسداد في الرأي وحسن في التصرف والتدبير ، وتقدير للظروف الراهنة والعواقب البعيدة ، وإلا وقع المفاوض فيما يضره ولا ينفعه ، والأمثلة على ذلك تفوق الحصر .

ولما كانت قريش في موقف الموتور فإن أي شرط يكون ظاهره المساس بحقوقها سيكون مآله الرفض وعدم القبول وتجديد الأزمة . فالوصول إلى اتفاق (في صالح الإسلام والمسلمين) إنما يتوقف على تقدير الشروط الملائمة وتقدير عواقبها وآثارها ، وقد طلب مندوب قريش شروطا وافق عليها رسول الله ﷺ ، وقرر رسول الله ﷺ شروطا تؤدي في النهاية إلى دخول قريش في الإسلام ، والشروط إذا ما كانت مبنية على تقدير العواقب ، خفيت مزاياها إلى درجة جعلت قريشا تظن أنها قد كسبت معركة الصلح ، بينما كاد المسلمون أن يفتتنوا من جراء الشدة الظاهرية التي فرضتها عليهم نصوص الصلح فقد تضمَّن ما يلي : ــ

١- أن تضع الحرب أوزارها لمدة عشر سنوات يأمن فيها الناس .

٢- من أتى المسلمين من قريش بغير إذن وليه يرد عليهم .

٣- ومن جاء قريشا من المسلمين لم يردوه عليهم .

٤- ومن أحب أن يدخل عهد المسلمين دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل عهد قريش دخل فيه .

٥- أن يرجع المسلمون عامهم هذا فلا يدخلون مكة .

٦- فـــي العـــام القابل تخرج قريش عن مكة ويدخلها المسلمون لزيارة البيت فيقيمون بها ثلاثا ، وسلاحهم فقط السيوف في أغمادها .

خفيت مزايا الصلح على المسلمين حتى كادوا أن يفتتنوا ، ولما التأم الأمر ولم يـــبق إلا تدويـــنها ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر يختبر ما في نفسه : فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر ! إلزم غرزه ، فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

فعمر رضي الله تعالى عنه يسوق مسلمات بديهية ظن أنها تتعارض وشروط الصـــلح . والصـــديق الأكبر رضي الله تعالى عنه : نبه عمر إلى أن اطلاع رســـول الله ﷺ أوسع مما يدركانه وأمره بأن يلزم ركابه : فيسلم بما لم يفهم من الشروط التي ستتضح له مزاياها فيما بعد .

وخشـــي عمـــر أن يكـــون رســـول الله ﷺ قد سلم بهذه الشروط خشية على المســـلمين ورحمـــة بهم . فأراد أن يتأكد بنفسه ، فجاء رسول الله ﷺ فقال ، يا رسول الله . ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال: بلـــى. قال: أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى .؟ قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه (أنا عبدالله ورسوله ، لن أخالف أمره، ولـــن يضيِّعَني) فعلم عمر رضي الله تعالى عنه أن حجته التي احتج بها إنما هـــي حجـــة عليه ، وظهر له عظم اعتراضه ، قال عمر فيما بعد : مازلت أتصـــدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمـــت بـــه ، حـــتى رجـــوت أن يكون خيرا . فاعتذر عمر عن نفسه بأنه لا يرجو إلا الخير ولا يكون من مثل عمر إلا هذا .

والواقـــع أن صـــلح الحديبية كان تمهيدا لفتح مكة نفسها كما دل عليه تطور الحوادث . ذلك أن المادة الأولى : قد أعطت المسلمين الفرصة للاطمئنان من ناحية ألد أعدائهم وذلك مما يفسح لهم المجال لتبليغ الدعوة إلى باقي الجزيرة العربية والدول المجاورة لها . هذا إلى أن تقرير الهدنة جعل القرشيين يلتقون بالمســلمين ويجالســونهم ويسمعون الدعوة منهم ويناظرونهم جهرة مطمئنين آمنين من كل رقابة ، فلم يكلم أحد بالإسلام من يعقل شيئا إلا دخل فيه ، فقد تطورت الأحداث فيما بعد تطورا أظهر مزايا الصلح حتى بلغ عدد من دخل فـــي الإســـلام ما بين الحديبية وفتح مكة أضعاف من دخله من القرشيين بعد الهجرة .

أمـــا المـــادة الثانـــية فهي تنص على حق قريش في الاحتفاظ بمن يدخل في الإسلام: ونفع هذه المادة للمسلمين أكثر من ضررها . إذ أن إمساك القرشيين للمســـلمين مما يؤدي إلى انتشار الإسلام بينهم ، والدليل على ذلك أن قريشا طالمـــا اضـــطهدت المسلمين قبل الهجرة فما زادت الدعوة إلا قوة ، وسنرى ما أدى إليه الاضطهاد بعد عقد صلح الحديبية .

أمـــا المـــادة الثالـــثة التي تنص على عدم إلزام قريش برد من يأتيها من عند المســـلمين ، فهـــي تنفع ولا تضر ، إذ لا حاجة للمسلمين بمن يتركهم ، فلن يتركهم زهدا فيهم إلا منافق .

أمـــا المـــادة الرابعة فكلها لصالح المسلمين إذ أباحت الدخول في عهدهم لمن شـــاء، فدخلـــت خزاعة في عهدهم ، فكان دخولها أهم سبب مباشر لفتح مكة فيما بعد .

وقد أرضت المادة الخامسة قريشا بنصها على عدم زيارة المسلمين للبيت عام الحديبية . إلا أن المادة السادسة قد أباحت لهم ذلك في العام القابل ــ وقد عملت قريش لهذه الزيارة حسابها في هذه المرة فقررت إخلاء مكة خوفا من النتائج المترتبة على هذه الزيارة .

وكلما تأملت في هذا الصلح النزيه أخذتك روعته وجلاله ، ولا أقوى ولا أرجح عقلا ولا أشد رحمة من هذا المفاوض الذي يعطي خصمه في المفاوضة رغباته التي تنتهي حتما بعزة خصمه وسعادته ورفعته : فقد سمح رسول الله ﷺ لقريش بكل رغبة تؤدي إلى إسلامها، وقرر كل شرط يفتح لها أبواب الإيمان بالله تعالى ، وأي شروط أعلى وأربع من هذه التي تدفع قريشا دفعا إلى الفوز بنعمة الإسلام ؟

ولك أن تقارن ما بين هذا الصلح الشريف ، وبين ما يحدث بين الدول من تزييف للنصوص ، وتلبيس فيها ، وتكالب طرف على إذلال آخر ، وتمسك طرف بشروط تؤدي إلى أبلغ ما يمكن في سبيل تدمير الطرف الثاني ، ويكمل المأساة طريقة التنفيذ : فكل فريق يتربص بالآخر الوقيعة ، والتخلص من الشروط التي وقعها ويكون فيها هضم لصالحه ، مما شكك الناس في الوفاء ، وأصبحوا ينظرون إلى المعاهدات على أنها قصاصات من الورق لا تسجل إلا خيانة العهد وظلم الإنسان للإنسان ، تبارت الدول في تمزيق المواثيق معتبرة ذلك من السياسات العليا للبشر !

وبينما كان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يكتب شروط الصلح إذا بأحد المسلمين الذين كانوا يعذبون في مكة ، قد أقبل يرسف في قيوده : وهو أبـو جندل[1] بن سهيل بن عمرو ، ورآه أبوه وهو ينتظر الفراغ من تحرير شروط الصلح ، فوثب إليه ولطمه وأخذ بتلابيبه وهو يقول (يا محمد قد لجت أي أبرمـت – القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا) ، واستغاث أبو جندل بالمسـلمين طالبا إنقاذه من قوة أبيه والعذاب الأليم الذي يعانيه ، وهكذا وضع الصلح في الحال موضع الاختبار ولم تتم كتابته بعد . وتعلقت أنظار الصحب رضوان الله تعالى عليهم برسول الله ﷺ ينتظرون كلمته وقد أثارتهم حالة أبي جـندل . فالتفـت رسـول الله ﷺ إلى أبي جندل فقال (يا أبا جندل ،اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا[2] ومخرجا ؛ إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغـدر بهـم) ، ووافق ﷺ سهيلا على أن يصطحب ابنه معه – وتم كتابة الشـروط وأخـذ سهيل وثيقة الصلح وانصرف عائدا يجر ابنه معه ، وكانت ثـورة الغضـب لا تزال مستولية على كثير من المسلمين لما حدث : فهاهي قـريش بعـد أن منعتهم زيارة البيت ، تسترد من جاء مسلما أمام عيونهم ، وهاهو أبو جندل يستغيث فلا يستطيعون نجدته .

ووثب عمر بن الخطاب إلى أبي جندل وقد تملكه الغضب ، وتظاهر بمواساة أبـي جـندل واقترب منه وهو يدني قائم سيفه من يد أبي جندل ، يقول عمر (وددت أن يأخذ السيف فيضرب أباه فضن الرجل بأبيه) عبارة من عبارات عمر التي تصدر عن شدته في دين الله تعالى مهما كانت العواقب .

---

[1] اسمه العاص ، وقد أسلم أخوه عبدالله وشهد بدرا .

[2] هذه من معجزاته ﷺ كما سيتضح فيما بعـد .

وأمـــر رســـول الله ﷺ الصحب أن يقوموا فينحروا ويحلقوا رؤوسهم ، ولما كانـــت هـــذه أول مرة ينحر فيها الهدي قبل أن يبلغ محله ، ما جرؤ أحد من المســـلمين على أ ن يفعل هذا . فقام رسول الله ﷺ يكلم أحدا ونحر وحلق ، فلمـــا رأى المسلمون ما فعل رسول الله قاموا فنحروا وحلقوا وقفل رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة .

وإذا بالحوادث تتكشف سريعا عن حكمة هذا الصلح ففهم مزاياه من لم يفهم ، بـــالغم مـــن أن أشد ما فيه هو الوفاء بشروطه ، لتعلقها بالمؤمنين المعذبين . والواقع أنه كان إيذانا بالفتح الأكبر (مكة) ودخول العرب في الدين أفواجا .

وثـــب المشركون على من آمن من بينهم وأعدت كل بطن من بطون قريش ســـجنا يســـجن فيه من دخل في الإسلام كيلا يختلط هؤلاء بغيرهم ، وسلطوا علـــيهم الحـــرمان إلا مـــن القوت الضروري ، وبين الآونة والأخرى تلهب جلودهـــم الســـياط ليرجعوا إلى دين آبائهم . وهؤلاء وقد ذاقوا حلاوة الإيمان يأبون النكوص ولو ألقت بهم قريش في النار ، وفي استطاعة الباطل أن ينكل بالأعضاء تنكيلا ، وأن يمزقها إربا ، ولكنه ينهار أمام عظمة الإيمان ، ونور الحق ، فلتفعل قريش ما يشاء بهذا الشرك أن تفعل ولتنتقم كما يزين لها الحقد أن تنتقم ، فإنها لا تستطيع أن تنال إلا من الأجسام ، أما القلوب التي أصلحها الإيمـــان لتشـــهَدَ أنـــوارِ الحق ، فلا سبيل لمخلوق أن يسيطر عليها فهي بين أصـــبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء ، أما وقد قلبها في سعة رحمته ورضوانه ، فلن تقلبها قريش في عذاب الشرك وجحيمه .

وكان من بين هؤلاء الذين حبستهم قريش أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفـــي حلـــيف بني زهرة الذي استطاع أن يفلت من سجنه وأن يهرب إلى

المدينة . وطبقا لشروط صلح الحديبية التي تقرر تسليم من فر من قريش إلى المسلمين فقد كتب فيه أزهر[1] بن عوف من بني زهرة ، والأخنس[2] بن شريق بن عمرو الثقفي إلى رسول الله ﷺ يطلبان تسليمه وأرسلا في ذلك جحيش بن جابر العامري وكان ذا جلد ورأي ومعه مولى لبني زهرة ، و جعلا لهما مكافأة إن هما قدما به . فقدما على رسول الله ﷺ وسلماه الكتاب.

فقال رسول الله ﷺ (يا أبا البصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق إلى قومك)

فقال أبو بصير : يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني !

فقال رسول الله ﷺ (يا أبا بصير انطلق ، فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا) . ولما وجد أبو نصير أن رسول الله ﷺ كرر عليه الأمر بتنفيذ العهد ، انطلق مع الرسولين وقد ضاقت الدنيا في وجهه. فلا هو يستطيع أن يعيش هانئا مطمئنا بين قومه ، ولا هم بتاركيه ليقيم بين المسلمين ، ولا هو بمطيق الصبر على تعذيب المشركين له بمكة . انطلق وهو يقلب أمره ليصل إلى حل لقضيته ، حتى إذا ما وصلوا إلى ذي الحليفة[3] عزم على أمر ولم يتردد .

لم يكن للمسلمين أية سلطة على الفارين بل كانت تسري عليهم ما يمكن أن نسميه الرعوية القرشية ، وتمضي عليهم أحكامها ، ولم يكلف الصلح

---

[1] هو عم عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه .

[2] حليف أبي زهرة وكان فيهم مطاعا لا يخالفون له أمرا .

[3] بينها وبين المدينة ستة أو سبعة أميال وهي ميقات أهل المدينة .

المسلمين أن يكرهوا من جاءهم على الرجوع من تلقاء أنفسهم ، بل كان كل الذي عليهم أن يسلموا الهاربين الداخلين في منطقتهم لرسل قريش إذا ما أرسلت في طلبهم كذلك لم يكن المسلمون مسئولين عما يحدث في الطريق بين رسل قريش وبين الهاربين ، فأي حادث يحدث بين الطرفين إنما يدخل في اختصاص قريش ، ولقريش أن تدبر طريقة إعادة الهاربين كما تشاء ، ولو اشترطت قريش في الصلح أن يتكفل المسلمون بإرجاع الهاربين إلى موطن إقامتهم . لكان في ذلك إرهاق للمسلمين لا يمكنهم أن يوافقوا عليه – فماذا لو تخلص أبو بصير من صاحبيه ثم عاد إلى المسلمين وقد برئت ذمتهم مما حدث؟

جلس الثلاثة إلى جدار بذي الحليفة لأمر من الأمور . وألقى أبو بصير نظرة على سيف جحيش وسأله (أصارم سيفك هذا) فقال مفتخرا (نعم انظر إليه إن شئت) . وكان جحيش غافلا عما يدور في نفس أبي بصير : فهو لم يذق ألم السجن ولا مرارة العذاب ، ولا ذلة الإهانة ، حتى يأخذ حذره ويحتاط لنفسه من أسيره ، وكان كل همه يدور حول المكافأة التي ينتظرها في نظير تسليم أبي نصير إلى قومه ، أما ما يلقاه أبو بصير فلا يهّمه ذلك في شئ وليس من شأنه . وما إن تمكن أبو بصير من السيف في يده حتى وثب على جحيش فقتله، وولى المولى منهزما إلى المدينة ، حتى أتى رسول الله ﷺ ، فوجده جالسا في المسجد ، فلما رآه ﷺ مقبلا قال (إن هذا الرجل قد رأى فزعا) ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له (ويحك مالك ؟) قال : " قتل صاحبكم صاحبي" وإذا بأبي بصير قد أقبل ودخل المسجد ، فقال (يا رسول الله ، وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، استنقذني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي) .

لقد اعتقد أبو بصير أنه قد حل القضية على وجه لا يخل بشروط الصلح وأنه يستطيع أن يمكث في المدينة بدون حرج . وفاته أن وجوده في المدينة يتنافى مع شروط الصلح ما دامت قريش قد أرسلت في طلبه ، وعليه أن يغادر المدينة مع رسول قريش ، وإن فعلته قد أكدت هذا المعنى .

ولفت رسول الله ﷺ نظر أبي بصير إلى الحل الموفق وذلك دون الإخلال بشروط الصلح بعبارة من جوامع كلمه في حسن التدبير وسداده فقال صلوات الله وسلامه عليه (ويل أمه محش[1] حرب لو كان معه رجال) .

لم يستطع المستضعفون من المسلمين في مكة أن يصلوا إلى حل موفق يخرجهم من ورطتهم ، وإن تركهم في هذا المأزق دون نصح ليس من شيم الوفاء الكامل ، وما دامت إقامتهم في المدينة أصبحت مستحيلة لأنها خرق لشروط الصلح ، فما هو الحل إذن ؟

وكما قلنا إن الوفاء يحتاج إلى سعة تدبير ورجاحة عقل ، ولا يلجئ إلى الإخلال بالوفاء سوى ضيق التدبير أو عدم بلوغ الرأي إلى مستوى المحافظة على الوفاء مهما ثقلت شروطه . إن الفارين من قريش قد عجزوا عن إيجاد حل لمشكلتهم لأنهم يقصدون المسلمين في المدينة وهذا مما يعطي قريشا الفرصة للإرسال في طلبهم وإعادتهم . فلماذا لا يتجهون إلى أي مكان آخر سوى المدينة . إن الحل الوحيد أمامهم هو الهرب إلى مكان لا يمكن لقريش أن تطلبهم فيه ، كما أنه لا يمكنها تكليف المسلمين بالبحث عنهم ما داموا غير مقيمين مع المسلمين – ويستطيع المستضعفون أن يتخذوا من مكانهم هذا مركزا للوثوب على قريش ، فتصبح حينئذ بين أمرين :

إما أن تشتبك معهم في قتال ، ولاشك أنه سيكون صراعا قاسيا ، إذ أن المسألة مسألة حياة أو موت ، و يكون الهاربون أشبه بفرقة فدائية يمكنها أن

---

[1] مسعر حرب .

تلحــق أذى كبــيرا بقريش – خصوصا وأن عددهم سيزداد بمضي الزمن ، وستدعمه قوات من الأعراب الذين يميلون إلى المغامرة .

وإمــا أن تترك قريش لهم حرية الانضمام إلى المسلمين ، وكلا الأمرين في صالح المسلمين . لقد كان المخرج من هذه الورطة في يد المسلمين الهاربين. وانقدح في ذهن أبي بصير الحل الذي استعصى عليه وعلى إخوانه حين سمع رســول الله ﷺ يقول : (ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال) . فهرب حــتى نــزل ساحل البحر الأحمر مابين العيص وذي المروة ، ليهدد الطريق المألوف للقوافل القرشية ، وما إن سمع المستضعفون بما فعله أبو بصير حتى كفــوا عــن الهروب إلى المسلمين ، وأخذوا يتسللون إلى موضع أبي بصير الواحد إثر الآخر وعلى رأسهم أبو جندل الذي بدأ يفهم قول رسول الله ﷺ في صلح الحديبية (يا أبا جندل ، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك مــن المستضعفين فرجا ومخرجا) ، وانضم إلى هذه القوة من أسلم من قبائل غفار وجهينة حتى بلغوا ثلاثمائة – وتولى القيادة أبو جندل الذي سدد ضرباته إلى هؤلاء الذين كانوا يعذبونه ويعذبون أصحابه بالأمس ، وفي ذلك يقول:[1]

أبلــغ قريشا عن أبي جندل ... أنــي بذي المروة بالساحل

فــي معشــر تخفق راياتهم ... لبــيض فــيها والقنا الذابل

يــأبون أن تــبقى لهم رفقة ... مــن بعد إسلامهم الواصل

أو يجعــل الله لهــم مخرجا ... والحــق لا يغلــب بالباطل

فيســلم المــرء بإســلامه ... أو يقــتل المــرء ولم يائل

---

[1] الاســتيعاب لابن عبدالبر طبعة الهند ١٣١٩هـ جـ٢ ــ ص ٦٥١ ، ونهاية الأدب للنويري طبعة القاهرة ــ ١٩٥٥ ــ جـ ١٧ ــ ص ٢٤٧ .

وقعت قريش في حيرة[1] لم تجد لها حلا إلا عند رسول الله ﷺ ، فكتبت تسأله بأرحامها إلا آواهم فلا حاجة لقريش بهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن .

لقد كان هذا هو الحل الوحيد الذي يخلص قريشا مما دهمها .

فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه ومن معهما من المسلمين المهاجرين من مكة ، وأن يلحق رجال القبائل ببلادهم .

ولقائل أن يقول : إن التنكيل بقريش وتهديدها يقتضي ترك هؤلاء على مكانتهم يؤرقون قريشا ويقضون مضاجعها . والجواب أن صلح الحديبية قد قرر الهدنة بين قريش والمسلمين ، ولما أن قريشاً قد وافقت على عودة المستضعفين من المسلمين إلى المدينة ، فيكون في تركهم وشأنهم خرق للهدنة وإخلال بشروطها .

وقدم كتاب رسول الله ﷺ وكان أبو بصير على فراش الموت وقد احتضر وهو يقرأ عليه . فدفته أبو جندل مكانه ، وقدم أبو جندل مع أصحابه ورجع من انضم إليهم من القبائل إلى قبائلهم ، فهؤلاء لا داعي لحضورهم بل الأوفق أن يرجعوا إلى ذويهم لينشروا الإسلام بينهم .

وفّى رسول الله ﷺ بجميع شروط الصلح وطبقها تطبيق الواثق بنصر الله تعالى وتأييده إياه ، وأن العاقبة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فكان الوفاء بهذه

---

[1] وقد بدأت هذه " الحيرة " حينما قتل أبو بصير أخا بني عامر ــ جحيش بن جابر ، فحين بلغ سهيل بن عمرو قتل صاحبه العامري أسند ظهره إلى الكعبة ، ثم قال : والله لا أؤخر حتى يودي هذا الرجل ــ فقال أبو سفيان : والله إن هذا لهو السفه . والله لا يودي (ثلاثا) ، ذلك أن المسلمين الهاربين قد سقطت مسئوليتهم أمام أية جهة مختصة طبقاً لشروط الحديبية التي تحرم عليهم الانضمام إلى المسلمين . فالمسلمون بعد أن وفوا بشرطهم ليس لهم شأن بضمان سلامة رجال قريش ، كما أنهم غير مسئولين عن الهاربين .

الشـــروط واحـــتمالها ، هو عين النصرة ، وقد انعكس الأمر على قريش من حيـــث لا يشعرون فذلوا من حيث طلبوا العزة بغير الله تعالى ، وقهروا من حيـــث أظهـــروا القـــدرة والفخـــر ، والخيلاء والغلبة وانقلب العز بالباطل ، ذلا بحق.

وأكـــد الله عز وجل بيعة المؤمنين لرسول الله ﷺ بأن يده كانت فوق أيديهم ، فمـــن عقد مع رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه عقداً ، أو بايعه بيعة ، إنما يبايع الله تعالى ويد الله عز وجل فوق يده ، فمن نكث هذه البيعة فما ظلم إلا نفسه ومن وفى بها فقد أعد الله تعالى له أجراً عظيما ، وكل مؤمن قد بايع الله تعـــالى علـــى لسان رسوله صلوات الله وسلامه عليه بيعة على الإسلام وحقوقـــه ، فناكث وموف ، فلينظر فالأمر جد عظيم ، ولا نجاة إلا بالتمسك بهدي رسول الله ﷺ واتباعه وطاعته . وقد أخبر الله عز وجل عن رضاه عن المؤمنيـــن بدخولهم تحت البيعة لرسوله ﷺ ، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء وكمال الطاعة والانقياد وإيثار الله ورسوله على كل شئ فأنـــزل الله السكينة والطمأنينة عليهم وأثابهم على وفائهم وصدقهم وصبرهم وإذعـــانهم وطاعـــتهم وانقيادهم على ما أحبوا وما كرهوا : أثابهم على ذلك برضـــوانه ، وفتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها فكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم ما جاهدوا في سبيل الله عز وجل لا تأخذهم في الله لومة لائم .

٥- " نعم، قد فعلنا "

فـــي مســـاء يوم أُحُد جاء أبو سفيان في ركب من المشركين حتى اقترب من المســلمين : ثم نادى في كل مرة ثلاثا : أفي القوم محمد ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم عمر بن الخطاب ؟ .

وقـــد أمـــر رسول الله ﷺ بعدم إجابته ، وحينئذ التفت أبو سفيان إلى أصحابه فقـــال : أمـــا هؤلاء فقد قتلوا ، وهو إذ سأل تحرى في سؤاله التأكد من عدم وجود من لا يقوم الإسلام إلا بهم .

تميز عمر غيظا واستأذن رسول الله ﷺ قائلا (يا رسول الله ألا أجبه ؟) قال: بلـــى . فنادى عمر مجيبا : كذبت يا عدو الله ؛ إن الذين عددت لأحياء كلهم وقـــد أبقـــى الله لك ما يخزيك ، وجاء الإعلان عن بقاء من عدهم أبو سفيان ووثـــق القوم من قتلهم ، جاء هذا الإعلان دفعة واحدة زيادة غيظ وكمد للعدو عمـــا فـــي الإعلان عنهم الواحد تلو الآخر ، لذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالصمت حتى استوى كيد أبي سفيان فانتدب عمر لإجابته . وكان الإعلام عن وجـــود رســـول الله ﷺ وعـــن أبي بكر وعمر إنذارا للمشركين وتعريفاً لهم بأن المسلمين مازالوا على قوتهم .

فقال أبو سفيان : أعل هبل . اعل هبل .

قال رسول الله ﷺ : قولوا الله أعلى وأجل .

وهـــبل هـــو اســـم صنم تعظمه قريش أكثر من غيره ومكانه الكعبة . والرد يلـــزمهم الحجة من نفس اعتقادهم : فما دعاهم رسول الله ﷺ إلا إلى الإيمان بـــالله عـــز وجل وهو عندهم وفي اعتقادهم أعلى وأجل من هبل ومن سائر الآلهـــة التـــي اتخذوها حجبة على الله تعالى ﴿ **ألا لله الدِّينُ الخالص. والذين اتَّخذوا من دونه أولياء ما نَعْبُدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلْفى إن الله يحكمُ بينهمْ في مـــا هـــم فيه مُخْتَلِفون إن الله لا يهدي من هو كاذبٌ كفارٌ** ﴾ -٣- سورة الزمر .

وهـــذا تنبيه من رسول الله ﷺ للمشركين على ضلالهم ، ولا أبلغ من الحجة المســـاقة مـــن نفـــس عقيدة المعترض ، فإما أن ينفي الآلهة ويؤمن وإما أن يعترف بضلاله .

وممـــا يفهم أيضا من جوابه ﷺ : أن فهم البشر يقصر عن إدراك حقيقة كل اســـم مـــن أسماء الله عز وجل على ما هو الأمر عليه ، فلا طاقة ولا قدرة لمخلـــوق علـــى هـــذا . فلابد من قصور الفهم عن هذا الإدراك ، فيدل أفعل التفضيل من كل اسم إلهي على علو ذلك الاسم عما أعطاه الفهم من نسبة ذلك الاســـم إلى الخالق ، فالله أعلى وأجل من كل ما تدركه العقول ﴿ **ليسَ كَمِثْلِهِ شئٌ وهو السميعُ البصيرُ** ﴾ من الآية –١١– سورة الشورى .

ثم قال أبو سفيان : إن لنا العزى ولا عزى لكم !!

فقال رسول الله ﷺ : (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) .

ومن كان الله مولاه أفاض عليه من الكرم الإلهي ما لا تدركه العقول ولا تحده الأفهـــام ، وكان منيع الحمى عزيز الجانب ولله العزة جميعا ، وهو منصور على كل من ناوأه وقاومه بالإدعاءات الكاذبة التي لا صورة لها في الحق.

والجواب لا يحتمل النقاش لأنه مبني على ما سلم به المشركون : فهم يفخرون بـــأن "لهم" العزى ، ومعنى ذلك أنهم يقررون أنهم مالكوها المتصرفون فيها فكـــيف يـــرجعون إلـــيها ؟ وكـــيف يكلون أمرهم إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ! فالعزى في حاجة إلى رعايتهم وحمايتهم وهي مفتقرة إليهم ، فما أذل من التمس القوة والولاية مما لا يعقل . فهم يحاربون من تولاه الله تعالى وهم لا مولى لهم .

وقبيل الرحيل أراد أبو سفيان أن يلقي من تهديداته التي يُرْضي بها كبرياءه فنادى على المسلمين قائلا : " موعدكم الموسم ببدر " فقال رسول الله ﷺ (قولوا: نعم قد فعلنا) قال أبو سفيان : " فذلكم الموعد " .

فلما كان العام القابل خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة من أصحابه ، وحمل لواءه علي بن أ بي طالب واستخلف على المدينة عبدالله بن رواحة . وسار ﷺ حتى انتهى إلى بدر فعسكر بها .

وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة في ألفين من رجاله ، وسار بهم حتى بلغ مر الظهران (شمال شرق مكة بنحو ثلاثين كيلومترا) وهناك خطب في الناس فقال (أيها الناس إني واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر ، وأن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لي أن أرجع فارجعوا .) فأخلف أبو سفيان الموعد وقفل راجعاً بجيشه وسمى أهل مكة هذا الجيش بجيش السويق استهزاءاً به ، وقالوا : " إنما خرجتم لتشربوا السويق " .

لقد أدرك أبو سفيان خطأه : فهو لا يقدر على حرب المسلمين مع مفاجأة لهم من غير موعد ، بالرغم من كل استعداد منه ، واحتياط يتخذه ، ومفاجأة يعدها لهم ، فما بالك وقد ضرب موعدا يعطي المسلمين الفرصة للاستعداد والقتال مدة عام ؟ والحرب لا تكون بضرب الموعد على اللقاء في مكان معين : إذ عند حلول الميعاد سيتخلف أحد الطرفين إما لأسباب ترجع إلى الحرب نفسها وإما لأسباب خارجة عنها كالجبن والرعب والفزع من الطرف الآخر ، وقد يتطور الأمر فيتخلف كل من المتواعدين : ﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد** ﴾ من الآية ٤٢ ــ سورة الأنفال ــ وقد وافق رسول الله ﷺ أبا سفيان على الموعد ، لأن تحديده يلزم المسلمين بذلك لئلا يظن المشركون بعد وقعة أحد أن المسلمين قد تهيبوا لقاءهم كما هي عادة العرب ، ورسول الله ﷺ يعلم أن أبا سفيان لن يستطيع الوفاء بما وعد وسيجبن عن لقاء المسلمين حيث حدد موعدا للقائهم .

وقد أقام رسول الله ﷺ منتظرا في بدر ثمانية أيام وهي المدة الكافية لوصول قريش من مكة إلى بدر فلما رجعوا عاد رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى المدينة . ولا يخفى ما في الانتظار من معان .

وتسمى هذه الغزوة (ببدر الموعد) وفيها يقول عبدالله بن رواحة :

وعدنا أبا سفيان وعدا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأبت ذميما وافتقدت المواليا

تركنا به أوصال عتبة وابنه ... وعمرا – أبا جهل – تركناه ثاويا

عصيتم رسول الله : أف لدينكم ... وأمركم الشيء الذي كان غاويا

وإني وإن عنفتموني لقلما ... فدى لرسول الله أهلي وماليا

أطعناه لم نَعْدِلْه فينا بغيره ... شهابا لنا في ظلمة الليل هاديا